الدلالات الإيحائية في النصوص القصصية الشعبية
دراسة في تكرار علامة الثعبان

الدكتور: عزوي امحمد
قسم اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة فرحات عباس سطيف

يمكن اعتبار الثعبان كعلامة نصية متكررة في النصوص القصصية الشعبية المتداولة في الأوساط الشعبية، والمتعامل مع هذه النصوص تشده هذه العلامة المتلاحقة وتفرض عليه سلطة تجبره على الحفر في النص وفي خارج النص باعتبار أنه علامة مرجعية تشير لا إلى نفسها الحالي ولكن إلى نفسها القائمة في زمنها القائم الذي كان ، فتآكل الزمن وبقيت تشكل دالة إيحائية مشفرة تمتنع أحيانا عن البوح ، وتنقاد في أحايين أخرى طائعة ، تقودنا إلى جذورها الثقافية الضاربة في عمق التاريخ . غير أن((البنية السطحية والدلالات الحرفية والتفسيرات الداخلية ، ليست كافية وحدها لاستكنا ه مقصدية (العلامة داخل) النص ، وإنما هناك بنية أخرى عميقة ذات دلالات إشارية وتأويلات خارجية)[1] . والحديث عن هذه العلامة يقودنا إلىالحديث خارج الصورة التي تمثلها نصيا، ويجبرنا للتنقيب في الذاكرة الجماعية للجماعة البشرية المتكررة في الإطار المتسلسل من الآن الأول إلى الآن الحاضرالذي يقبع فيه النص القصصي الشعبي بكل مايحمله من تراكمات روحية وثقافية .

و الثعبان حيوان مرجي في الفكر العقائدي الشعبي، كما انه حيوان أسطوري في الميثولوجيا القديمة ، وله حضور متجل في النصوص القصصية الشعبية، حضوره لا يشكل موضوعا عجائبيا تحفل بها النصوص ، إنما يمكن اعتباره كموضوع قائم بذاته له مرجعية تاريخية في الفكر البشري مدعما بالفكر التصوري العقائدي الذي بنيت عليه كثير من المعتقدات الدينية القديمة ، حتى و إن تغيرت واندثرت بفعل المتغيرات التي لحقت بفكر الإنسان و عقائده ، إلا أن موضوعه بقي متموقعا في قاع النص محتفظا بديمومة

استمراره، هذه الديمومة استمرت بفعل الرواسب المتراكمة و التي يتشكل منهـــا التـــراث الشعبي ممتدا من الآنية إلى عمق التاريخ وما قبل هذا العمق إلى الآن الأولى.

و سأستعرض خمس صور للثعبان من خمسة نصوص مختارة. تشكل علامة متكررة تدعو للوقوف لها وعندها، ثم محاورة هذه العلامة (أوالعلامات) للوصول إلـــى مدلولاتها أو التقرب منها مستعينا بالمفاهيم أو الأفكار الأساسية في بعض الأساطير عبـــر مناطق حضارية مختلفة.

1- صورة النص الأول:

عنوان النص هو الصياد.

يجد صياد ثعبانا في حفرة مع غيره ثم يخرجهم جميعا ويذهب لحاله يتهم الصياد بسرقة أموال السلطان ، ويحكم عليه بالموت في الزنزانة ، وهو ينتظر الموت يبرز له الثعبان. يامره بنزع شعرتين من رقبته واشعالهما عند تنفيذ الحكم . الرجل ينفذ الأمر .يبرزثعبان ضخم ويلتوي عليه مما يجعل السلطان ومن معه يخافون ويبرؤون الصياد.

2صورة النص الثاني

عنوان النص هو : أسحمحم وأسقمقم

يفر الابن من أمه التي حاولت قتله يصل إلى واد ، يجد فيه فتاة جميلة معها طعام الفتاة تخبره أنها والطعام قربان للثعبان ذي السبعة رؤوس الذي يحجز الماء عن المدينة الأبن يصارع الثعبان ويقتله ويترك الماء ينساب إلى المدينة.

3 صورة النص الثالث

عنوان النص :أحمد لغزال أو لاله عيشه

ترمى الزوجة في البئر تجد فيه ثعبان بسبعة رؤوس.

4 صورة النص الرابع

عنوان النص : أحمد بولحمارة

تهرب المرأة من الغولة مع ابنها ، تدخل غارا تجد فيه ثعباناالمرأة تتزوج بالثعبان وتنجب منه طفلا، تريد أن تتخلص من ابنها الأول الولدان يقتلان الثعبان عند الوادي.

5 صورة النص الخامس:

عنوان النص: ذيـــــــــــاب .

ذياب أراد أن يتزوج من بنت السلطان .السلطان وضع شروطا لذلك. منها: أنه من يحجز جريان الفيضان يزوجه ابنته.

ذياب يستعين بثعبان ضخم. الثعبان يقف حاجزا لمياه الفيضان.

ومن خلال هذه الصور المصغرة للنصوص تبقى علامة الثعبان بارزة وحضورها قائما على الدلالة الإيحائية المبنية على الثنائية التضادية ، والصراع القائم الـذي يشـكله الخير والشر في مدار يكون فيه الثعبان جانبا ممثلا لهما . ويمكن أن نحصر ذلـك فـي الجدول التالي حتى تتضح لنا العلاقة التي يمثلها الثعبان في ذلك مـع ارتباطـه بعلامـة أخرى وهي الماء :

النص	الخير	الشر	لماء
1	+	–	–
2	–	+	+
3	–	+	+
4	+	–	+
5	+	–	+

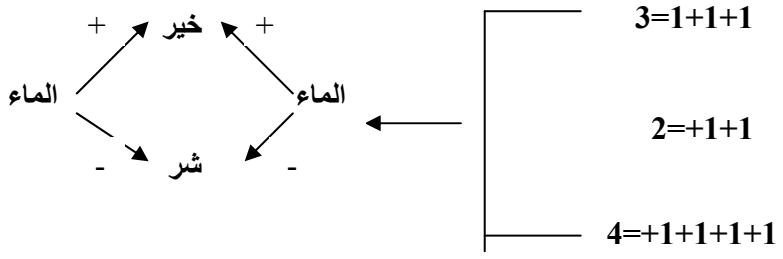

وفي ضوء هذا التقابل بين العناصر الثلاثة : يمكن أن نقترب من فهم حقيقة علامة الثعبان في المرويات الشعبية، هذا الوجود المتكرر، أدى إلى فرض الوقوف عنده، و مساءلة الفكر الشعبي عنه، من هنا استوجب التعامل معه على مستويات مختلفة يمكن حصرها في ثلاث مستويات:

المستوى الأول:

موقف التفكير الشعبي من الثعبان الخارج عن النصوص المروية .

فإذا عندنا إلى مساءلة التفكير الشعبي عن علاقته بالثعبان فإننا نجده يصف موقفه إلى موقفين، يقف الثعبان في وسطهما:

موفق يرى انه رمز للخير، ويتجنب أذاه وقتله، وهذا راجع إلى معتقد لديه على أساس أن الثعبان تسكنه روح صالحة لا تؤذي، وخاصة ثعابين البيوت ،حيث تترك تعيش فيها دون إزعاج، أو الثعابين التي توجد في أماكن معلومة تحفها هالة الاحترام والتقديس ، ويكون الثعبان حارسها وسندها .

و النوع العقائدي الثاني مبني على إن البعض منها (من الثعابين) يتجسد فيها و لي من الأولياء، و يظهر في محافل صوفية خاصة أو في أوضاع إقامة خاصة أيضا، فقد روى لي احد الشيوخ الكبار حادثة وقعت تقريبا في العقد الأول من القرن الماضي (ق 20) أن احد الأولياء كان مع موردية في حضرة ذكر. و فجأة ظهر بينهم ثعبان ضخم ففزعوا منه، فهدأ من روعهم ذلك الولي بعد أن سحب الثعبان إليه و مسح على رأسه و قال لهم إنه سيدي الطاهر (و هو ولي متوفى).و من الشائع في الأوساط الشعبية استعمال الكف تتوسط عين و يتخلل اصباعه ثعبان لدرء العين و الحسد و الروح الشريرة و النفس، و لكل من الأصابع الخمسة و العين و الثعبان مدلول خاص به إذا ما فك هذا التركيب.

والموقف الثاني يرى في الثعبان أنه رمز للشر يستوجب قتله حيث ما وجد. و يسندون إلزامية القتل إلى حديث شعبي منسوب إلى الرسول (ص) ، و الفاعل ينال أجرا على ما فعل . و ينظر إليه على أنه حيوان شرير مؤذي لغيره يعتدي على غيره،و يتمثل وضعه في المقولة الشعبية (ما يحفر، ما يدفر، ما يبات البر). بمعنى لا يقوم بأي عمل إلا الاعتداء على غيره و اخذ ما لديه، و قديما قال الشاعر،

لا تقطعن ذنب الأفعى و ترسلها إن كنت شمها فاتبع رأسها الذنبا

المستوى الثاني:

موقف النصوص الشارحة أو نصوص الحافة:

و هي النصوص التي تعرضت للثعبان، و المقصود بها التي وردة في التوراة، و بعض تفاسير القرآن. و تتعلق بالحية التي أغوت حواء ثم ادم بارتكابهما الخطيئة الأولى، و ربما كانت هذه النصوص الموثقة هي التي كثفت صورة الثعبان في العقلية الشعبية المورثة على اعتبار أنها نصوص شبه دينية فإمكانية حدوثها اكبر من غيرها.

فالتوراة أجزمت بكون الحية هي السبب الأول في وقوع الخطيئة الأولى بان زينت لحواء الأكل من الشجرة المحظورة، ثم ما عقب من اللعنة التي نزلت عليها، و العداوة الدائمة بينها و بين نسل ادم،تمشي على بطنها، تلدغ الإنسان أين وجدته ، و يهشم هو رأسها حيث ثقف بها .من هذا الحدث الأول خلقت هذه العداوة الدائمة و الكره المستمر بين الإنسان و الثعبان [2].

كما تعرضت بعض التفسيرات للموضوع نفسه ،أن إبليس لما أراد غواية ادم و حواء ((أتى الحية , وهي دابة لها أربع قوائم كأنها البعير و هي كأ حسن الدواب فكلهما أن تدخله في فمها حتى تدخل به الي ادم .فأدخلته في فمها, و مرت الحية على الخزنة و هم لا يعلمون))[3].

و قد أورد الطبري في تاريخه رواية عن وهب بن منبه تتحدث عن الحية و إبليس و الغواية و التي تقول إن إبليس ((دخل في جوف حية و كان للحية أربعة قوائم كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله تعالى)).[4]

و بعد الغواية و حلول أللعنة قال الله للحية: ((انت التي أدخلت الملعون في بطنك حتى غر عبدي , ملعونة انت حتى تتحول قوائمك في بطنك , و لا يكون لك رزق إلا التراب , انت عدوة بني آدم و هم أعداؤك , حيث لقيت أحدا منهم أخذت بعقبه و حيث لقيك شدخ راسك))[5].

و قد فسر بعض من المفسرين القدامى قوله تعالى: ((اهبطوا بعضكم لبعض عدو))[6] أي آدم و حواء و إبليس و الحية . فبعملها الذي عملته مسخت إلى شكلها الحالي.

فالنصان متشابهان و إن اختلفا في الشكل, فهما يتفقان على أن الحية كانت سببا مباشرا في النص الأول وغير مباشر في النص الثاني في حرم الإنسان من الخلود. ثم بعد هذا نجد نصا آخر أصوله اسبق من التوراة ومن نصوص التفسير , يتناول الموقف نفسه , و يتمثل في نص ملحمة جلجامش , الذي يحكي أن جلجامش تحصل على نبتة الخلد من بحيرة ، و حين استراح تسلل إليه ثعبان (أو حية) فأكل النبتة و حرم هو منها . و تكون النتيجة دائما في هذا السياق هي حرمان الإنسان من الخلود والسبب هو الثعبان .على الرغم من اختلاف النصوص روائيا و عقائديا إلا انه يمكن أن احدها (الأقدم) قد اثر في النصوص اللاحقة له ,لأننا إذا عدنا إلى القرآن الكريم فإننا لا نجد أثرا لهذه الحكاية , لقد تكلم عن الخطيئة الأولى , و لكنه لم يشر إلى الثعبان لا من قريب و لا من بعيد , و بالتالي فالنص الوارد في التفاسير يمكن أن يكون مأخوذا من نصوص العهد القديم , كما أن ما ورد في العهد القديم يمكن إرجاعه إلى نصوص سابقة على عهده [7].

مما سبق ،ترسخ هذا الحيوان في ذاكرة الإنسان وتحول إلى علامة دالة واحتفظت بها كجزء تراثي ،سواء داخل النص أو خارجه .

المستوى الثالث : علاقة الثعبان بالماء :

إذا رجعنا إلى الجدول السابق نلاحظ أنه من خمسة نصوص، أربعة منها ارتبط الثعبان بالماء بشكل من الأشكال ، ففي النص الثاني (المشار إليه سابقا) نجد ثعبانا يحجز الماء النابع من مغارة ، ولا يتركه ينساب إلا بعد أن يقدم له أضحية من البشر متمثلة في فتاة . وهذه الصورة تحيلنا إلى معتقدات قديمة ، قد تكون المرجع أو النمط الأصلي الذي تفرعت عنه بقية الصور المشابهة له.

فإذا عدنا إلى الفكر الديني المصري القديم (الفرعوني) وجدنا الثعبان يحتل موقعا مهما في الحياة العقائدية ، فكان يمثل ((رب الماء لاسيما الإله الذي يحيا في الكهوف التي ينبع منها فيضان النيل في اعتقاد المصريين ، وعلامة مميزة لغير البشر ، فالثعبان مخلوق أزلي يحيا في ظلمات الأرض أو في أعماق المياه(ثعبان البحر) و طبيعته خارقة للمألوف و مفعمة بالعداء , و ربما أيضا تعبر عن حكمة مفرطة))[8].

فهذه الصورة يمكن أن تقربنا إلى فهم علامة الثعبان أو صورته الواردة في النص المشار إليه سابقا, لان الصورتين متقاربتين أو تنطبقان على بعضهما . و حتى الفراعنة كانوا يقدمون كل عام أضحية لنهر النيل الذي اله في بعض الأوقات.

اعتقد أن هناك علائق بشرية متبادلة على رقعة جغرافية متواصلة أدت إلى انتقال هذا المعتقد (من-إلى) و تمازجت فيما بينها , لان العلامات الرمزية ليست ((وحدات قائمة بذاتها , فهي قابلة للامتزاج و التداخل حتى تخلق أشكالا معقدة محيرة . بيدا أن امتزاج الأشكال ليس أمرا اعتباطيا، ولكننا نحن الذين لانفهم القواعد التي تحكم استعمالها إذا التبس علينا فهمها))[9].

فهذا الوضع الذي يوحد ما في النص القصصي بما هو معتقد به هو الذي يجرنا إلى الاعتقاد بأن أصل النص كان عقائديا فاختفى هذا الجانب (العقائدي)، وتحول إلى مروي فاقد سطوته، غير أن القرينة الدالة عليه تجبره على البوح بانتمائه.و هذا النمط نجده يتكرر في شكل آخر, في النص الثالث من النصوص المجدولة, و الذي ينص على أن الزوجة الثانية ألقي بها في البئر, و البئر مكان مائي , و هو على شكل مغارة أو كهف لكن بطريقة عمودية,يتوسطه ثعبان ضخم يتحين الفرصة لالتهام المرأة .حتى و إن النص لم يشر إلى الصورة السابقة فان تفكيك عناصر الصورة إلى مكوناتها تحيلنا الى الاعتقاد بان هذه الصورة هي نفسها الصورة السابقة , و يمكن مقارنتها فيما يلي :

الصورة الاولى	الصورة الثانية
كهف افقي	كهف عمودي
ماء	ماء
ثعبان	ثعبان
امرأة	امرأة

حتى و إن اختلفت العناصر المكونة للنصين ، غير أن الصورة واحدة وإن كانت أخذت شكلا مغايرا لتحمي نفسها من الاندثار لأننا لو أخذنا ظاهر النص الذي يحاول أن يعطي لنا صورة عن الغيرة المتجذرة في نفسية المرأة ، فكان بالإمكان أن تتخلص الزوجة من ضرتها بأي وسيلة غير هذه. والنص لم يقدم لنا موسوغا موضوعيا لوجود الثعبان داخل البئر،لان المرأة الثانية،ألقيت في البئر و لم تمت ، بل ولدت فيها و الغرض

من الفعل هو الموت و التخلص منها . وهذا ما يؤكد أن الجانب العقائدي المتخفي هو المقصود توظيفه ، للجانب الفعلي للفعل .

و بطريقة تدحرج كرة الثلج ، بمعنى أن هذا الجزء النمطي للثعبان يمكن أن يكون محورا يؤدي إليه و تنطلق منه الأفعال ، و كما أنه يصبح مفتاح لانفكاك المعقد من الأحداث . فنهايته تؤدي إلى الانفراج في النص ، وهذا ما رشحه لان يكون رمزا مزدوجا للحياة و الموت في الوظيفة التفاعلية القائمة على وجوده داخل النص.

و يأتي النص الخامس ليغاير النصوص الأخرى المتقاربة، و لكن يشاكلها في جزء مهم من التصور لموقع الثعبان من الطبيعة ، أو موقعه ألاعتقادي الأول. حيث تلجأ امرأة فارة من الغول(الوحش)إلى غار(كهف)، فتجد فيه ثعبانا ضخما فتطلب منه الحماية، فيقبل أن يحميها لكن شريطة أن يتزوجها.

ويتم ذلك فتلد منه ابنا و كان لها اخرمن إنسان . ثم تقرر أن تتخلص من ابنها الأول عن طريق لدغ الثعبان له ، لكن ابن الثعبان فطن لمحاولة أمه ، فساعد أخاه وقتلا الثعبان حينما أخذاه إلى النهر.

والصورة هنا و إن بدت معاكسة للصورة السابقة ، إلا أن أجزاءها مطابقة لأجزاء الصور الأخرى ، إذ تتكون هي الأخرى من :

كهف+ثعبان+امرأة+ماء .

لأننا لو عدنا إلى نهايات الصور السابقة لو وجدناها منتهية بالطريقة المتباينة في الظاهر والمتشاكلة في الداخل ، حينها يمكن القول بالنمط النموذجي لهذه العلامة الواردة في النصوص القصصية المختلفة:

النص 2	الكهف	الثعبان	المرأة	الماء(النبع)	الموت
النص 3	الكهف	الثعبان	المرأة	الماء(البئر)	الموت
النص 5	الكهف	الثعبان	المرأة	الماء(النهر)	الموت

و هذه ا الأجزاء القائمة بذاتها هي رموز بحدها يمكن مراجعتها .

و يبقى النص الرابع ,و يغلب عليه الطابع العجائبي المشدود إلى قوى السحر , و إن كان فيه جزء من الأجزاء السابقة إلا أن صورته لم تكتمل كالنصوص الأخرى.

أما زواج المرأة بالثعبان ؛ فيذهب جيمس فريزر إلى أن هناك قبائل في غرب إفريقيا تعتقد بهذا الزواج , و هو زواج مقدس و يحمل مرتبة الألوهية, و دوره خاص بنماء الزرع و تكثير المواشي[10] و حدوث هذا الفعل في النص القصصي له مرجعية قد تكون تسربت من المعتقدات المجاورة بواسطة قنوات متنوعة . . أو أنها كانت لأن المرأة لم تعترض على ذلك

و يرى Gilber Durand (جيلبير دوران), أن الثعبان واحد من أهم رموز الخيال البشري , لحضوره المكثف في اغلب الميثيولوجيات العالمية واستمر تواجده ولو شكليا إلى يومنا هذا ،ولعل نظام حياته الفيزيولوجيا هي التي أثرت في الاعتقاد به وتعدت الصور حوله ، حيث أنه يغير جلده مرة كل عام , وهي دلالة في الاعتقاد بالتجدد المستمر. كذلك بياته ويقظته هو نوع من الموت والانبعاث المتكرر , ويربط Bachelard (باشلار) ((هذه القدرة على التجدد عند الحيوان المتحول,هذه الموهبة المدهشة في تجدد الجلد مع نسقUoroboros (أوروبوروس)[11] أي الثعبان الملتف على ذاته والذي يأكل نفسه باستمرار :الثعبان الذي يعض ذيله ليس حلقة من اللحم فقط ،إنه الجدلية المادية للحياة والموت . الموت الذي يخرج من الحياة ، والحياة التي تخرج من الموت ، ليس كنقيض كماهي الحال في منطق أفلاطون وإنما كتعاكس لاينتهي بين مادة الموت ومادة الحياة))[12].

وفي المعتقد المصري القديم ، وعند بعض الشعوب ، أن شعورا بخوف ينتاب الإنسان من أن هناك خطرا داهما من قبل أعداء كونيين ((ومن ثم أظهرت الحاجة إلى وجود حارس يحيط بالأرض أو برمزها أي التل الأزلي (وهو) ثعبان عملاق يضع ذيله في فمه))[13] ومن هنا كان ((الثعبان خالدا وسيبقى ما بقي الزمن . ولما كان يحيط بالأرض فهو موجود في أقصاها .ويمكن القول بأنه المحيط المحدق للأرض ، كما يمكن اعتباره القوة التي تحمي الدنيا من طغيان الماء))[14].

ولعل من هذا التصور العقائدي انبثقت تلك الصورة التي جاءت في النص الخامس المسوم بـ **ذياب** ، حيث يتعرض ثعبان ضخم لفيضان جارف ويحمي المدينة

التي كانت ستجرفها المياه ، حتى وإن كانت الصورة غير واضحة إلا أن الـربط بينهـا وبين الثعبان المحيط أو الثعبان الكوني يحيلنا إلى دالة مشتركة بينهمـا . وهكـذا يبقـى الثعبان كعلامة إستفزازية في النص القصصي الشعبي تثير القارئ والسامع وتجبرهمـا على محاورتها وأحيانا تأبى الإذعان وتبقى كما هي إذا لم تبح بمرجعياتهـا المختلفـة والمتعددة ...

الهـــــــــــوامش

[1] جاب الله أحمد : التشاكل والتباين في لامية العرب .أعمال الملتقى الوطني الثاني .السيمياء والنص الأدبي 15ـ16 أبريل 2002. منشورات الجامعة بسكرة ص-94 .

[2] انظر الكتاب المقدس. العهد القديم.صفر التكوين .الإصحاح الثاني و الثالث

[3] أبو جعفر محمدبن جرير : تاريخ الطبري .تاريخ الملوك .المجلد 1 ،ص:71

[4] المصدر نفسه .ص72

[5] المصدر نفسه ص72

[6] المصدر نفسه ص72

[7] أنظر : جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم . تـــ نبيلة إبراهيم . ج 1 دار المعارف .مصر .ط2 1982 .ص 126

[8] رند ل كلارك: الرمز والأسطورة. في مصر القديمة. تر/احمد صليحة. الهيئة المصرية العامة للكتاب.ط.. 1999 ص:237.

[9] المرجع نفسه ص 215

[10] انظر : جيمس فريزر :ادونيس اوتمموز ترجمة :جبرا ابراهيم جبرا .المؤسسة العربية للدراسات و النشر . بيروت . ط3 . 1982ص:67

[11] أوروبوروس Uoroboros الثعبان الذي يرمز للدورة الزمنية ،يختفي ويظهر كالقمر، جسمه يحتوي على حلقات مماثلة لعدد أيام الشهر القمري

[12] جيلبير دوران : الانتروبولوجيا .رموزها . اساطيرها .انساقها ترجمة : مصباح الصمد.المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ط2 1993 ص 295

[13] رندل كلارك : الرمز والأسطورة في مصر القديمة . ص238

[14] المرجع نفسه ص238